أزمة الثقافة العربية الإسلامية

محمد عمارة

في الحديث عن «أزمة الثقافة العربية» ـ ونحن على أبواب العقد الثاني من القرن الخامس عشر الهجري ـ والعقد الأخير من القرن العشرين الميلادي ـ يحسن بنا ـ التزاماً بالمنهج العلمي ـ أن نبدأ هذا الحديث بتحديد ما نعنيه بمضامين المصطلحات.. مصطلحات العنوان الذي نعنون به هذا الحديث..

● **فالأزمة**.. هي: الشِّدّة والضيق والمأزق، الذي يمنع المصاب به ـ إنساناً كان أو أمة أو ثقافة أو حضارة ـ من الحركة الحرة، والنمو الطبيعي، والحيوية المعبرة عن الطاقة الطبيعية لضحية هذا الضيق وفريسة هذا المأزق...

ذلك هو ما نعنيه بهذا المصطلح... مصطلح «الأزمة»...

● **والثقافة**.. ـ في عرفنا ـ هي: كل المعارف والعلوم والفنون والآداب، التي يكون موضوعها، وتكون مقاصدها: عمران النفس الإنسانية وتهذيبها وتنمية أدوات شعورها واستشعارها لما خلق الله لها في هذا الكون من مصادر النفع وآيات الجمال...

وهي ـ الثقافة ـ في اختصاصها بعمران النفس الإنسانية ـ تعد واحدة من شقي «الحضارة»... أما شقها الآخر، فهو «التمدن» ذلك الذي يشمل المعارف والعلوم ـ والتطبيقات التقنية ـ التي موضوعها ومقاصدها: عمران «الواقع» بالأشياء..

فمن «الثقافة» و«التمدن» تتكوّن الحضارة، التي هي عمران النفس الإنسانية، وعمران الواقع الذي يعيش فيه الإنسان، بالأشياء. . .

● **أما العربية**. . - كصفة نميز بها ثقافتنا التي نتحدث عن أزمتها - فإنها تعني - في عرف كاتب هذه الصفحات - وخاصة في مثل هذا المقام - مقام الحديث عن الثقافة - تعني: «الاسلامية» - بالمعنى الحضاري الشامل - ذلك أن معيار «العروبة» هو اللغة العربية، فهي التي حددت نطاق الأمة - أي الجماعة - العربية. . . ولقد كان الإسلام هو الذي أقام بنيان هذه الأمة، ومن نطاقها، عندما غدت العربية لسانه، كما كان المضمون الذي تجسد في علوم الشريعة، والروح التي سرت لتنشىء علوم الحضارة، ولتصبغها بصبغته. . . فهو «الرسالة الخالدة» لهذه الأمة الواحدة!. .

هذا عن المضامين التي نعنيها لمصطلحات عنوان هذه الصفحات: «أزمة الثقافة العربية». . .

***

وإذا نحن شئنا أن نكثف التعبير عن طبيعة أزمة الثقافة العربية في كلمات، فإننا نستطيع أن نقول: إن جوهر هذه الأزمة: **هو إسراف العقل العربي والإسلامي في المحاكاة والتقليد، وفقره وافتقاره إلى الإبداع والتجديد!. .**

● فالقطاع الأكبر من مثقفي هذه الأمة ومفكريها، فريسة **«للإنقسام الحاد»** - وليس **«التنوع»** - حول: هوية النفس العربية. . أهي إسلامية؟. . أم غربية؟؟. . أهي ماضوية تراثية؟. . أم ماضوية ومعاصرة؟؟. . أم أن «الحداثة» - التي تقطع الصلات بالموروث - هي مذهبها وطريقها؟؟. .

وحتى بين التراثيين الماضويين، هناك الانقسام الحاد حول: أي ماض وأي سلف ننطلق من ميراثه ونسترشد بآثاره؟. . أهو سلف عصر الازدهار؟. . أم سلف عصر التراجع والجمود؟؟. . بل إن معايير الازدهار والتراجع هي الأخرى موضع خلاف حاد بين التراثيين الماضويين؟!. . أضف إلى ذلك خلافهم حول دور العقل ومقامه في التعامل مع الموروث!. .

وليس أهل المعاصرة والحداثة بأحسن حالاً في هذا الموضوع . . فإذا كانوا قد اتخذوا الحضارة الغربية قبلتهم التي إليها يتوجهون، ومنبعهم الذي منه يغترفون . . فإن منهم من جعل «الشمولية ـ المادية» سَلَفَهُ الذي يحتذيه . . ومنهم من جعل «الليبرالية ـ الرأسمالية» المثال الذي يبتغيه، فتوزعتهم هم الآخرون، مدارس الغرب وتياراته ومذاهبه الفكرية والاجتماعية . .

بل إن هناك نحواً آخر من الخلاف قام ويقوم حول فهم معنى «المعاصرة» . . فعلى حين يفهمها البعض على أنها النموذج الحضاري الغربي . . يراها آخرون: التعامل مع العصر، حتى ولو أثمر خياراً حضارياً متميزاً عن النموذج الغربي! . .

هكذا . . وعلى هذا النحو، يعاني القطاع الأكبر من مثقفي هذه الأمة ومفكريها من هذا «**الانقسام الحاد**» في «**الأصول . . . والمنطلقات . . والمقاصد والغايات**» . . **وليس من مجرد «التنوع» في السبل والمناهج والفروع . .**

● **ويزيد من مخاطر هذا الانقسام: تكافؤ ـ أو تقارب ـ قوى وإمكانات التيارات الرئيسة التي تتنازع هذه المواقف والمنطلقات والمقاصد والتوجهات ـ وخاصة تياري التقليد لماضينا وسلفنا، ولماضي وسلف ونموذج الحضارة الغربية ـ الأمر الذي حال، حتى الآن، دون حسم الجدل والاختلاف حول طبيعة «هوية النفس العربية»، وطبيعة «مذهبية ثقافتها» . .**

فهذا التكافؤ ـ أو التقارب ـ بين تيار التقليد والمحاكاة للسلف ـ وهو الذي يجتذب وجدان العامة وأفئدة الجمهور ـ . . وبين تيار التقليد والمحاكاة للغرب ـ وهو الذي يهيمن على القطاعات المؤثرة ومراكز التوجيه في العلم والتعليم والتثقيف والإعلام ـ . . هذا التكافؤ ـ أو التقارب ـ بين «تياري المحاكاة والتقليد»؟! ـ مع ضعف تيار الإبداع والتجديد ـ هو الذي جعل الأمة، ويجعلها تستنفد أغلب طاقاتها الثقافية والفكرية في هذا «الصراع الداخلي»، على النحو الذي جعل بأسها بينها شديداً . . فاستنزفت أغلب هذه الطاقات في «الصراع» لا في «الابداع» . . يهدم تيار ما يبنيه الآخر، ويقتلع هذا

ما يغرسه ذاك. . فكأنهما يمارسان «لعبة شد الحبل»، فوقف فعلهما معاً ـ بسبب تكافؤ الطاقات ـ عند نقطة «الصفر» لا يتعداها؟!. .

لقد تحصنت هذه التيارات بالتقليد، لا بالتجديد. . التقليد للتخلف الموروث أحياناً. . وللوافد غير الملائم أحياناً أخرى. . الأمر الذي أفضى إلى انتشار أخطر أمراض أزمة الثقافة العربية. . مرض: الفقر في الإبداع والتجديد، والاخلاد إلى المحاكاة والتقليد. . وهل هناك أزمة ثقافية أسوأ وأشد من توقف عقل الأمة عن الإضافة الخلاقة، ووقوفه عند الأعتاب مستفتياً؟!. . يستفتى أمواتنا الحلول لمشكلات «الأحياء»!. . أو يستفتي «الآخر الحضاري» الحلول لمشكلات «الذات»!!. .

ذلك هو «الشلل»، الذي يعبر عن جوهر أزمة الثقافة العربية، كما يراه كاتب هذه الصفحات. .

***

لكن. . . . .

إذا استطاعت هذه السطور التي سبقت «الإشارة» إلى جوهر الأزمة، فإن المقام لا يستغني عن «تفصيل» ـ مناسب للإطار ـ يلقي الضوء على معالم ومواقع هذه التيارات التي تتقاسم التعبير عن ثقافتنا العربية والتأثير في عقل الأمة ووجدانها. . ففي ذلك بيان لأبعاد الأزمة وحجمها، وفيه، كذلك، إشارات إلى طريق الخروج منها، والانعتاق من مأزقها. .

وإذا كانت هذه التيارات الفكرية والثقافية قد تمثلت في:

- تيار التقليد للموروث. . .
- وتيار التقليد للوافد الغربي. . .
- وتيار الإحياء والتجديد. . .

فإن المقام يقتضي حديثاً يوجز ويكشف معالم كل تيار من هذه التيارات. . .

١ ـ تيار التقليد والمحاكاة للموروث:

منطلقات هـذا التيار ومنـابعه: هي فكـر أسلافنـا، الذي تبلور في عصـور التراجع لحضارتنا الإسلامية على وجه الخصوص والتحديد!.. فأهله ومؤسساته لا يعرفون كثيراً عن حقيقة المنابع الجوهريـة والنقية لفكـر الحضارة الإسـلامية، ولا يهتمون كثيراً بإبداع عصر الازدهار لهذه الحضارة.. وأغلب زادهم الفكري هو ابن لقرون التراجع والجمود المملوكية ـ العثمانية..

وإذا كان هذا التيار قد ضم فصائل ثلاث:

آ ـ **مؤسسات العلم والتعليم الموروثة**.. مثل الأزهر، وما ماثله وشابهه من المدارس والجامعات..

ب ـ **والطرق الصوفية**... وتنظيماتها، ومشيخاتها المتعددة...

جـ ـ **والنصوصيون**.. الذين وقفوا عند ظواهر النصوص ودلالاتها، عازلين إياها عنْ ملابساتها وعن مقاصد الشريعة والتشريع المبتغاة من هذه النصوص..

إذا كانت تلك هي أبرز فصائل هذا التيار.. فإننا نعرف له فضـل الحفاظ على تراثنا، وفضيلة الدفاع عنه أمام الوافـد الغربي الـذي أراد اقتلاعـه والحلول في مواقعه، الأمر الذي حفظ للأمة ولثقافتها التـواصل مـع ماضيهـا الحضاري، ومكّن لحركات الإحياء والتجديد من مادة ومنطلق هذا الإحياء والتجديد..

ذلك فضل لا ينكر لفصائل هذا التيار..

لكن هذا التيار، الذي جفل من «الوافد الغربي»، فانكفـأ على «الـذات»، قد ظل عاجزاً عن صيـاغة الخيـار الحضاري والنمـوذج التجديـدي القادر عـلى منافسة النموذج العربي.. لا لقصور طبيعي في عقول أعـلام هذا التيـار، وإنما لعيب في بضاعتهم الفكرية.. فلقد كانت بضاعة عصر تراجعنا الحضـاري.. أي أنها كانت عرضـاً من أعراض مرض التخلف الحضاري الذي أصاب هـذه الأمة، فأنىَّ لها أن تكون سبيلاً ومادة للنهضة والإحياء؟!..

لقد تأملتُ ـ وأنا الذي درست في الأزهر ـ وتسـاءلتُ: لماذا كـانت أغلب

الكتب التي ندرسها مؤلفة في عصر التراجع وليس في عصر الإبداع الحضاري لأمتنا؟!

وفي ضوء هذا التأمل، وهذا التساؤل، فهمت معنى عبارة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ/ ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م] التي يقول فيها عن الأزهر وابنائه: «**إنهم لا يتعلمون، في الأزهر، إلا بعض المسائل الفقهية وطرفاً من العقائد، على نهج يبعد عن حقيقتها أكثر مما يقرب منها! . وجل معلوماتهم: تلك الزوائد التي عرضت على الدين، ويُخشى ضررها، ولا يُرجى نفعها. . فهم أقرب للتأثر بالأوهام، والانقياد إلى الوساوس من العامة، وأسرع إلى مشايعتها منهم! . . فبقاؤهم فيما هم عليه مما يؤخر الرعية! . . .**»[1].

وهذه المؤسسات التعليمية العريقة الموروثة، عندما سلكت طريق التطور، أخذت «بشكل» التجديد، لا بجوهره، فاقتربت - في أحيان كثيرة - من «التغريب»، أكثر من اقترابها من المنابع الجوهرية والنقية للفكر الذي أبدع وميّز حضارة الإسلام! . . .

أما المؤسسات الصوفية، فإنها - باستثناء القلة القليلة التي رحم ربي - قد استبدلت الشعوذة والخرافة بحقيقة التصوف، كسبيل لتهذيب النفس، ورافد يزامل العقل في إقامة التوازن بثقافة الإنسان. .

وإذا كان التيار النصوصي الحديث، قد نفض عن عقائد الدين كثيراً من البدع، وعن تصورات العامة كثيراً من الخرافات، فإن جموده عند حرفية ظواهر النصوص قد أورثه العجز عن إبداع المشروع الحضاري الذي يصوغ الإنسان المقاوم للزحف الغربي. . لقد أضاف هذا التيار النصوصي حصناً جديداً منيعاً إلى حصون «الرافضين للتغريب»، والممتنعين عن الاستلاب الحضاري. . لكن عجزهم عن إبداع البديل المعاصر، القادر على منافسة النموذج الغربي والانتصار عليه، قد هيأ ذلك «الفراغ» الذي تقدم التغريب

---

(١) محمد عبده [الأعمال الكاملة] جـ٣ ص ١١٢ - ١١٤. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م.

لمثله واحتلاله، إنْ في عقول «النخبة» التي تغربت، أو في واقع الأمة الذي أصبح محكوماً بقوانين وفلسفات التغريب!..

وإذا كنا قد أوردنا عبارة الإمام محمد عبده، التي وصفت الحالة الفكرية لأبناء الأزهر ـ على عهده ـ.. فإن له عبارة تصف هذا «الفصيل النصوصي» من فصائل تيار التقليد للموروث.. يقول فيها عن أهله: إنهم «أضيق عَطَناً[٢] وأحرج صدراً من المقلدين!. فهم، وإن أنكروا كثيراً من البدع، ونحواً عن الدين كثيراً مما أضيف إليه، وليس منه، **إلا أنهم يرون وجوب الأخذ بما يفهم من لفظ الوارد، والتقيد به، دون التفات إلى ما تقتضيه الأصول التي قام عليها الدين، وإليها كانت الدعوة، ولأجلها منحت النبوة، فلم يكونوا للعلم أولياء، ولا للمدينة أحباء!..**»[٣].

تلك هي أبرز فصائل هذا التيار.. تيار التقليد والمحاكاة للموروث.. الذي كان له فضل الحفاظ على «الذات الثقافية»، لكنه انكفأ على هذه «الذات» ـ وكانت ـ في أغلبها ـ «ذات» عصر التراجع الحضاري ـ الأمر الذي أعجزه عن منافسة النموذج الغربي... نموذج فكر عصر الإحياء والثورة الصناعية في أوروبا، ذلك الذي جاء إلى بلادنا في ركاب جحافل الاستعمار الغربي الحديث..

لقد تحصن هذا التيار بالماضي، ومن ورائه أفئدة العامة والجمهور، فترك الحاضر وعقول النخبة التي صنعها الاستعمار في مؤسساته الفكرية، ووفق مناهجه الوضعية.. ترك كل ذلك فراغاً للاستلاب الحضاري والتغريب..

٢ ـ تيار المحاكاة والتقليد للوافد الغربي ـ (التغريب) ـ:

لقد بدأت بذرة هذا التيار أول ما بدأت بمصر إبان الحملة الفرنسية عليها [١٢١٣هـ/ ١٧٩٨ م].. فكانت بدايات فكرة: الاستقلال عن الموروث،

(٢) أي صدرا وأفقا!..

(٣) المصدر السابق. جـ٣ ص ٣١٤.

وقـطع حبـال التـواصـل الحضـاري . . والاستقـلال عن المحيط، العـربي الإسلامي . . واستبدال النموذج الغربي بدلاً من المنابع الحضارية الإسلاميـة . . والوطنية القطرية بدلاً من الجامعة الإسلامية . .

ولقـد صاغ هـذا المشروع ـ لاستقـلال مصر عن منـابعهـا وعن محيـطهـا ـ «المعلم يعقـوب» [١٧٤٥ ـ ١٨٠١ م] ـ وكـان رجـلاً من أراذل القبط، التحق بجيش بـونـابـرت [١٧٦٩ ـ ١٨٢١ م] وأصبح جنـرالاً فيـه؟! . . واستخـدمـه الفـرنسيون جـلاداً للمصريين . . حتى لقد تبرأت منه الكنيسـة المصريـة، وسماه الجبرتي [١١٦٧ ـ ١٢٣٧ هـ/١٧٥٤ ـ ١٨٢٢]: «يعقوب اللعين»؟! . .[٤].

وإذا كان هذا المشروع قد قبر بجلاء الحملة الفرنسية عن مصر [١٢١٦ هـ/ ١٨٠١ م]، ومعها «المعلم يعقوب» . . فلقد عاد مشروع «الإلحـاق الحضاري»، بعـد احتـلال الإنجليز لمصر (١٢٩٩ هـ/ ١٨٨٢ م] ـ عـاد هـذه المـرة لتبشر بـه مؤسسـات فكريـة، ومنابـر ثقافيـة، وأجهزة إعـلامية، قـامت ومارست عملهـا بمصر، في رعاية سلطات الاحتلال الإنجليزي، التي كـان يقودهـا يومئذ اللورد كرومر (١٨٤١ ـ ١٩١٧ م] . . ثم أخذت إشعاعات هذه الدعوة في الامتداد إلى ما حول مصر من أقاليم! . .

ولقـد كان رواد «مشروع الإلحـاق الحضـاري» هـذا ـ في هـذا الـطور من أطواره ـ مجموعة من المثقفين الموارنة الشوام، الذين هاجروا إلى مصر فراراً من السلطة العثـمانية، والـذين كانت تحـركهم كراهيـة شديـدة للدولـة العثـمانيـة، وبغض دفـين للإسـلام . . ولـما كـانـوا أبنـاء أقلية دينيـة لا تملك نمـطاً للدولـة والقـانون والعمـران، مماثـل أو مغاير لـما لدى الإسلام ـ فمسيحيتهم رسـالـة روحية خالصة لمملكة السماء، تدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله ـ فلقـد رأوا أن البديل المرشح لإزاحة الإسلام عن أن يكون صبغة النهضـة للأمـة، هو بـديل التغـريب . . فوظفـوا طاقـاتهم والمؤسسـات التي أقـامـوهـا بمصر لخـدمـة هـذا

---

(٤) د. محمد عمارة [جمال الدين الأفغاني المفترى عليه] ص ١٠ ـ ١٤ طبعة دار الشروق. القـاهرة ١٩٨٤ م.

المشروع.. مشروع التبشير بالنموذج الغربي نمطاً لنهضة الشرق وتقدمه، بدلاً من النموذج الإسلامي - الذي أهالوا عليه كل سوءات وسيئآت العثمانيين؟!...

وفي ضوء هذه الحقيقة يجب أن نعيد قراءة تاريخ وتأثير مدرسة صحيفة «المقطم» [١٣٠٦ - ١٣٧١ هـ/ ١٨٨٩ - ١٩٥٢ م] ومجلة «المقتطف» [١٢٩٣ - ١٣٧١ هـ/١٨٧٦ - ١٩٥٢ م].. وأن نعى دلالات وتأثيرات الفكر الغربي الذي بشر به وأشاعه أقطاب وأعلام هذه المدرسة وهذا التيار.. من مثل: يعقوب صروف [١٢٦٨ - ١٣٤٥ هـ/١٨٥٢ - ١٩٢٧ م].. وفارس نمر [١٢٧٢ - ١٣٧٠ هـ ١٨٥٦ - ١٩٥١ م].. وشاهين مكاريوس [١٢٦٩ - ١٣٢٨ هـ ١٨٥٣ - ١٩١٠ م]... وشبلي شميل [١٢٧٦ - ١٣٣٥ هـ ١٨٦٠ - ١٩١٧ م].. ونقولا حداد [١٢٩٥ - ١٣٧٣ هـ ١٨٧٨ - ١٩٥٤ م].. وجرجي زيدان [١٢٧٧ - ١٣٣٢ هـ ١٨٦١ - ١٩١٤ م].. وفرح أنطون [١٢٩١ - ١٣٤٠ هـ ١٨٧٤ - ١٩٢٢ م].. وبشارة تقلا [١٢٦٥ - ١٣٠٩ هـ ١٨٤٩ - ١٨٩٢ م].. وسليم تقلا [١٢٦٨ - ١٣١٩ هـ ١٨٥٢ - ١٩٠١ م] وأمثالهم.. فمن خلال هذه المؤسسات والمنابر، التي رعاها الاستعمار، تسربت عناصر المشروع الغربي، كبديل للمشروع الإسلامي، وتسربت «الثقافة الغربية» - وليس «حقائق العلم الغربي» - لتحل محل الثقافة العربية الإسلامية، مستفيدين من الفراغ الذي نشأ من عجز تيار التقليد والمحاكاة للموروث..

وإذا شئنا كلمات معبرة - بصراحة عارية - عن مقاصد هذا التيار، فإننا نختار كلمات سلامة موسى [١٣٠٥ - ١٣٧٧ هـ ١٨٨٨ - ١٩٥٨ م] - وهو الذي مكنته «مواطنته» المصرية من أن يكون صريحاً؟! - والتي يقول فيها عن ما يريده هذا التيار للشرق وأهله: «**إذا كانت الرابطة الشرقية سخافة، لأنها تقوم على أصل كاذب، فإن الرابطة الدينية وقاحة، فإننا أبناء القرن العشرين أكبر من أن نعتمد على الدين جامعة تربطنا.. ونحن في حاجة إلى ثقافة حرة أبعد ما تكون عن الأديان.. وحكومة ديمقراطية برلمانية، كما هي في أوروبا، وأن يعاقب كل**

من يحاول أن يجعلها مثل حكومة هارون الرشيد أو المأمون، أوتوقراطية دينية... إنني، كلما ازددت خبرة وتجربة وثقافة توضحت أمامي أغراضي:

يجب علينا أن نخرج من آسيا، وأن نلتحق بأوروبا، فإني كلما زادت معرفتي بالشرق زادت كراهيتي له، وشعوري بأنه غريب عنّي، وكلما زادت معرفتي بأوروبا زاد حبي لها وتعلقي بها، وزاد شعوري بأنها مني وأنا منها. وهذا هو مذهبي الذي أعمل له طول حياتي، سراً وجهراً، فأنا كافر بالشرق، مؤمن بالغرب...»(٥)؟؟!!..

هذا هو مذهب تيار التقليد والمحاكاة للغرب، الذي اختار هذا الطريق عامداً متعمداً، وبوعي بمعالم هذا الطريق، وبنتائجه ومقاصده، لأن أعلامه كانوا كارهين للإسلام، كخيار حضاري لنهضة الشرق والعرب والمسلمين..

وإذا كانت «مدرسة المقطم» و«مدرسة المقتطف» ـ وهما جناحان لتيار واحد ـ قد عبرا عن «التغريب ـ الليبرالي».. فإن السنوات التي أعقبت قيام الثورة البلشفية في روسيا [١٣٣٦ هـ ١٩١٧ م] قد شهدت بدايات تيار «التغريب ـ الشمولي» على يد طلائع «اليهود ـ الصهاينة ـ الماركسيين».. فعرف هذا التيار، وعرفت منظماته قادة ومؤسسين ومنظرين من مثل: «روزنتال».. و«مارسيل إسرائيل».. و«هنري كورييل».. و«أوديت».. و«إيزاك إسرائيل».. و«شوارتز».. و«ريمون دويك».. وأشباههم من شذاذ الآفاق، الذين انضموا إلى متغربي الموارنة، مؤملين تحويل المسار الحضاري للأمة عن التوجه إلى رسالة نبيها محمد بن عبدالله ﷺ.. وحالمين بمنافسة أعلامها المحدثين.. من مثل جمال الدين الأفغاني [١٢٥٤ ـ ١٣١٤ هـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧ م] ومحمد عبده [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥ م] ورشيد رضا [١٢٨٢ ـ ١٣٥٤ هـ ١٨٦٥ ـ ١٩٣٥ م] وعبدالله النديم [١٢٦١ ـ ١٣١٤ هـ ١٨٤٥ ـ ١٨٩٦ م] وعبد الحميد بن باديس [١٣٠٥ ـ ١٣٥٩ هـ ١٨٨٧ ـ ١٩٤٠ م] ومصطفى عبد

(٥) سلامة موسى [اليوم والغد] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٧ م ـ والنص في: د. محمد محمد حسين [الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر] جـ ٢ ص ٢١٢ ـ ٢١٥. طبعة القاهرة سنة ١٩٨٠ م.

الـرازق [١٣٠٢ ـ ١٣٦٦ هـ ١٨٨٥ ـ ١٩٤٦ م] وسـعـد زغـلـول [١٢٧٣ ـ ١٣٤٦ هـ ١٨٥٧ ـ ١٩٢٧ م] وحسـن الـبنـا [١٣٢٤ ـ ١٣٦٨ هـ ١٩٠٦ ـ ١٩٤٩ م]. . وغيرهم من الأبناء البررة لثقافة هذه الأمة وحضارتها. .

هكذا بدأ وتبلور تيار التغريب والاستلاب الحضاري، الـذي بشر بثقافة الغرب أداة لإزاحة تميز الثقافة العربية الإسلامية. . والـذي دعا إلى تبني النموذج الحضاري الغربي، بخيره، وشره، بحلوه ومره، زاعماً أن العقل الشرقي كان لا يزال عقلاً يونانياً، حتى بعد أن تدين أهله بدين الإسلام؟!. .

ولقد كان الهدف ـ الذي أعلنه سلامة موسى ـ لهذا التيار هـو إخراج الأمة من «آسيا» ـ أي من الإسلام وحضارته؟!. . وإلحاقها بالغرب، حضارياً. . وهو الهدف ذاته الذي وضع بذرته الأولى «يعقوب اللعين»!. .

٣ ـ تيار الإحياء والتجديد:

في تيار الإحياء والتجديد لثقافتنا العربية وفكرنا الإسلامي ـ وهو تيار عريض ـ وبه هو الآخر فصائل متمايزة، إن في ميادين اهتماماتها، أو في حظها من التجديد، أو في مقاييس التجديد لديها ـ . . في هذا التيار، نستطيع أن نرصد أسماء عشرات من العلماء الأعلام. . لكننا نشير إلى بعض من أبرز قادة هذا التيار. . من مثل: رفاعة الطهطاوي (١٢١٦ ـ ١٢٩٠ هـ ١٨٠١ ـ ١٨٧٣ م] وخير الدين التونسي [١٢٢٥ ـ ١٣٠٨ هـ ١٨١٠ ـ ١٨٩٠ م] وجمال الدين الأفغاني [١٢٥٤ ـ ١٣١٤ هـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧ م] والإمام محمد عبده [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥ م] وعبدالله النديم [١٢٦١ ـ ١٣١٤ هـ ١٨٤٥ ـ ١٨٩٦ م] وعبد الرحمن الكواكبي [١٢٧٠ ـ ١٣٢٠ هـ ١٨٥٤ ـ ١٩٠٢ م] ومحمد رشيد رضا [١٢٨٢ ـ ١٣٥٤ هـ ١٨٦٥ ـ ١٩٣٥ م] وحسن البنا [١٣٢٤ ـ ١٣٦٨ هـ ١٩٠٦ ـ ١٩٤٩ م] ومحمد الخضر حسين [١٢٩٣ ـ ١٣٧٧ هـ ١٨٧٦ ـ ١٩٥٨ م] ومصطفى كامل باشا [١٢٩١ ـ ١٣٢٦ هـ ١٨٧٤ ـ ١٩٠٨ م] وطلعت حرب [١٢٩٣ ـ ١٣٦٠ هـ ١٨٧٦ ـ ١٩٤١ م] وسعد زغلول [١٢٧٣ ـ ١٣٤٦ هـ ١٨٥٧ ـ ١٩٢٧ م] ومصطفى عبد الرازق (١٣٠٢ ـ ١٣٦٦ هـ ١٨٨٥ ـ ١٩٤٦ م] ومحمد مصطفى المراغي [١٢٩٨ ـ

١٣٦٤ هـ ١٨٨١ - ١٩٤٥ م] وعبد العزيز جاويش [١٢٩٣ - ١٣٤٧ هـ ١٨٧٦ - ١٩٢٩ م] وأحمد حسن الزيات [١٣٠٢ - ١٣٨٨هـ ١٨٨٥ - ١٩٦٨ م] وعبد الجليل عيسى [١٣٠٥ - ١٤٠٠ هـ ١٨٨٨ - ١٩٨٠ م] وعلي الحقيف - وعبد الوهاب خلاف - [١٣٠٥ - ١٣٧٥ هـ ١٨٨٨ - ١٩٥٦ م] ومحمد حسين هيكل [١٣٠٥ - ١٣٧٥ هـ ١٨٨٨ - ١٩٥٦ م] وعباس محمود العقاد [١٣٠٦ - ١٣٨٣ هـ ١٨٩٩ - ١٩٦٤ م] وعبد الحميد بن باديس [١٣٠٥ - ١٣٥٩ هـ ١٨٨٧ - ١٩٤٠ م] ومحمد الفاضل بن عاشور [١٣٢٧ - ١٣٩٠ هـ ١٩٠٩ - ١٩٧٠ م] وعلال الفاسي [١٣٢٦ - ١٣٩٤ هـ ١٩٠٨ - ١٩٧٤ م] وعلي مبارك [١٢٣٩ - ١٣١١ هـ ١٨٢٣ - ١٨٩٢ م] وقاسم أمين [١٢٨٠ - ١٣٢٦ هـ ١٨٦٣ - ١٩٠٨ م] وطه حسين [١٣٠٦ - ١٣٩٣ هـ ١٨٨٩ - ١٩٧٣ م] وزكي مبارك [١٣٠٨ - ١٣٧١ هـ ١٨٩١ - ١٩٥٢ م] . . وشكيب أرسلان [١٢٨٦ - ١٣٦٦ هـ ١٨٦٩ - ١٩٤٦ م] . . وغيرهم . . وغيرهم من أعلام هذا التيار . .

وإذا كان تراث حقبة الجمود والتراجع في حضارتنا العربية الإسلامية، قد كان بضاعة تيار التقليد للموروث. وإذا كان النموذج الحضاري الغربي قد مثل منابع ومنطلقات تيار التغريب . . فإن المنابع التي انطلق منها تيار الإحياء والتجديد قد تمثلت في:

● مبادىء الإسلام، كما تمثلت في منابعه الجوهرية والنقية: البلاغ القرآني، والبيان النبوي للقرآن الكريم، كما تمثل في السنّة النبوية الثابتة . .

● وثوابت التراث العربي الإسلامي، التي مثلت قسمات الهوية الحضارية للأمة، والتي حفظت لأجيالها تواصلها الحضاري، ووحداتها كأمة، عبر الزمان والمكان . .

● وكل ما أبدعه العقل الإنساني، في مختلف الحضارات، مما هو «ابن الدليل»، كما تمثل في الحقائق والقوانين التي مثلت وتمثل العلوم التي لا تتغاير موضوعاتها بتغاير الحضارات والمعتقدات . . أي العلوم الموضوعية المحايدة، التي هي «مشترك إنساني عام»، متميز عن «العلوم الإنسانية» - ومنها الثقافة - التي

تدخل في الخصوصيات التي تتمايز فيها الحضارات . .

تلك كانت المنابع الفكرية لتيار الإحياء والتجديد . . .

وإذا نحن شئنا أن تكون إشاراتنا لأهم الملامح الفكرية لمشروع الإحياء والتجديد الذي صاغه هذا التيار، وبشر به، ودعا إليه . . وإذا شئنا أن تكون إشاراتنا هذه موثقة وصادقة في التعبير عن حقيقة ملامح هذا المشروع . . فإننا نستطيع أن نتحدث بلسان أعلامه، فنقول إنهم **قد أرادوا مشروعاً تجديدياً لا يقيم قطيعة مع التراث، وإنما يتجاوز المتخلف منه، والذي تجاوزه التطور . . ولا يقيم قطيعة مع الحضارات الأخرى، وإنما يميز في عطائها بين «المشترك الإنساني العام» وبين «الخصوصيات» التي تتميز بها تلك الحضارات . . ولا يدير ظهره للواقع - حاضراً ومستقبلاً - فيهجره إلى الماضي - كما فعل تيار التقليد للموروث - أو إلى «الآخر الحضاري» - كما فعل تيار التغريب - وإنما أراد هذا التيار استلهام الموروث، والاستعانة بالوافد الملائم، كمنطلقات لإبداع جديد للواقع العربي الإسلامي الجديد. فالإبداع هو الهدف والأساس والسبيل إلى الإحياء والتجديد، في مذهب أعلام هذا التيار . . .**

● وإذا كان الإمام محمد عبده - وهو المهندس الأعظم لفكر هذا التيار - قد حدد أهدافه العامة . . فإننا واجدوها: الإحياء والتجديد في ثلاثة ميادين:

«**الأول: تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة**، قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى، واعتباره من ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لترد من شططه، وتقل من خلطه وخبطه، لتتم حكمة الله في حفظ نظام العالم الإنساني. وأنه - أي الدين - على هذا الوجه - يعد صديقاً للعلم، باعثاً على البحث في أسرار الكون، داعياً إلى احترام الحقائق الثابتة، مطالباً بالتعويل عليها في أدب النفس وإصلاح العمل - كل هذا أعده أمر واحد - . .

أما الأمر الثاني: فهو إصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير، سواء كان في المخاطبات الرسمية بين دواوين الحكومة ومصالحها، أو فيما تنشره الجرائد

على الكافة مُنْشأً أو مترجماً من لغات أخرى، أو في المراسلات بين الناس. . .

أما الأمر الثالث: فهو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة. . فالحاكم، وإن وجبت طاعته، هو من البشر الذين يخطئون، وتغلبهم شهواتهم، ولا يرده عن خطئه، ولا يقف طغيان شهوته، إلا نصح الأمة له بالقول والفعل. .».

وإذا كان الإمام محمد عبده قد حدد، في هذه الكلمات، ميادين الإحياء والتجديد. . فإنه قد نبه على تميز هذا التيار، عندما استطرد فقال: ولقد خالفنا في الدعوة إلى ذلك «رأى الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة:

أ ـ طلاب علوم الدين، ومن على شاكلتهم. .

ب ـ وطلاب فنون هذا العصر، ومن هو في ناحيتهم. . .»(٦).

تلك هي ميادين الإحياء التي عمل فيها تيار التجديد، المتميز عن تياري التقليد والتغريب. .

وإذا كانت قد سبقت إشارتنا إلى نقد الإمام محمد عبده لجناحي تيار التقليد الموروث ـ أبناء المؤسسات التعليمية الموروثة. . والنصوصيين ـ . . فإن الأفغاني يؤكد تميز هذا التيار عن تيار التغريب، بحديثه عن الموقف من «علوم» الغرب، ومن «ثقافة» الغرب، وذلك عندما يعرض لما صنعه العثمانيون والمصريون في «التحديث على النمط الغربي»! . . فيقول: «لقد شيد العثمانيون عدداً من المدارس على النمط الجديد، وبعثوا بطوائف من شبانهم إلى البلاد الغربية ليحملوا إليهم ما يحتاجون من العلوم والمعارف والآداب، وكل ما يسمونه «تمدناً»، **وهو في الحقيقة تمدن للبلاد التي نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنساني**! . .

فهل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك، وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة؟! . .

---

(٦) [الأعمال الكاملة] جـ ٢ ص ٣١٨، ٣١٩.

نعم، ربما وجد بينهم أفراد يتشدقون بألفاظ «الحرية» و«الوطنية» و«الجنسية» وما شاكلها.. وسموا أنفسهم: «زعماء الحرية».. ومنهم آخرون قلبوا أوضاع المباني والمساكن، وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والآنية، وسائر الماعون، وتنافسوا في تطبيقها على أجود ما يكون منها في الممالك الأجنبية، وعدُّوها من مفاخرهم.. فنفوا بذلك ثروة بلادهم إلى غير بلادهم!.. وأماتوا أرباب الصنائع من قومهم.. وهذا جَدْعُ لأَنْف الأمة، يشوه وجهها، ويحط بشأنها!..

لقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة، المنتحلين أطوار غيرها، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها.. وطلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات، يمهدون لهم السبيل، ويفتحون الأبواب، ثم يثبتون أقدامهم؟!..

إن أبا العلم وأمه هو الدليل، والدليل ليس أرسطو بالذات، ولا جاليليو بالذات.. والحقيقة تلتمس حيث يوجد الدليل..

وإن الظهور في مظهر القوة، لدفع الكوارث، إنما يلزم له التمسك ببعض الأصول التي كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم.. ولا ضرورة في إيجاد المنعة، إلى اجتماع الوسائط وسلوك المسالك التي جمعها وسلكها بعض الدول الغربية الأخرى، ولا ملجىء للشرقي في بدايته أن يقف موقف الأوروبي في نهايته، بل ليس له أن يطلب ذلك. وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أوقر نفسه وأمته وقرا(٧) أعجزها وأعوزها!..»(٨).

ويزيد مصطفى كامل باشا موقف هذا التيار من «الهوية» الحضارية وضوحاً وتحديداً، عندما يحدد علاقة «الوطنية» بـ«الجامعة الإسلامية» وعلاقة حضارتنا بالحضارة الغربية.. فيقول: «إننا نريد أن تكون مصر للمصريين، ونرفض قطعياً كل نير أجنبي...»

---

(٧) أي أذلها وصدعها..

(٨) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ص ١٩٥، ١٩٧، ٥٣٣. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م.

وإذا كنا نطلب إرشاد أمتنا إلى الحقيقة الدينية، فما ذلك إلا لأن الأضاليل والأكاذيب والخزعبلات، التي راجت بين العامة، باسم الدين، قلبت حقيقة هذا الدين، فصار الجهل والتأخر والانحطاط، وكل الآفات، مما يلقى على الدين وينسب إليه، والدين منه براء. **لذلك كان من المستحيل إحياء الأمة وإنهاضها بغير الحقيقة الدينية، لأنه لا سبيل إلى إبادة جيش الباطل، الذي أُلف ونُظم باسم الدين، إلا بالدين نفسه. فالتعليم الديني ليس فرضاً من الوجهة الدينية فحسب، بل هو كذلك أيضاً من الوجهة الوطنية.**

إن بث الحقيقة الدينية بين المسلمين من أكبر الأسباب الموجودة للتسامح والتقرب من الشعوب الأخرى، إذ لا تعصب مع علم، ولا نفرة مع نور ورشاد، فمن منفعة العناصر كلها أن يعرف المسلمون دينهم على حقيقته، وأن تزول أوباء الجهالات والخرافات من بينهم...

ونحن إذا اعتمدنا على الإسلام وقواعده وأوامره وإرشاداته، وأخذنا من المدنية الغربية فوائدها ومنافعها، واعتبرنا بعبر التاريخ، وتركنا النزاع الذي أضر بمصر والإسلام، واجتنبنا كل افتراق وشقاق، بلغنا أقصى ما يرام من مجد وعز وسوء «ومقام رفيع»(٩).

فتقليد الغرب شيء.. والأخذ من المدنية الغربية الفوائد والمنافع شيء آخر.. و«إحياء الأمة وإنهاضها بغير الحقيقة الدينية مستحيل..».

● ويزيد الإمام محمد عبده هذه الحقيقة.. حقيقة ضرورة «إسلامية النهضة والإحياء والإصلاح».. يزيدها حسماً وتأكيداً، عندما يقول: **«إن الدين هو سبيل لمريد الإصلاح في المسلمين لا مندوحة عنها، فإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين يحوج المصلح إلى إنشاء بناء جديد،**

---

(٩) مصطفى كامل: فقرات من خطبة في الاسكندرية في ٣ مارس سنة ١٨٩٦ م.. وخطبة في الاسكندرية في ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ م.. وخطبة في ذكرى تنصيب محمد علي باشا حاكماً على مصر - في ٢١ مايو سنة ١٩٠٢ م. انظر كتابنا [الجامعة الإسلامية والفكرة القومية عند مصطفى كامل] ص ٨٧، ٩٥ - ٩٧. طبعة بيروت سنة ١٩٧٦ م.

ليس عنده من مواده شيء، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحداً. .

وإذا كان الدين كافلاً بتهذيب الأخلاق وصلاح الأعمال وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها، ولأهله الثقة فيه، وهو حاضر لديهم، والعناء في إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إلمام لهم به، فلم العدول عنه إلى غيره؟! . . .»[١٠].

● لكن محورية الإسلام في النهضة والإصلاح لدى هذا التيار ـ تيار الإحياء والتجديد ـ قد جاءت موقفاً متميزاً عن موقف المقلدين للموروث؛ أولئك الذين وقفوا عند تراث عصور التراجع والتخلف الحضاري. . وعن موقف النصوصيين، أولئك الذين وإن كانوا قد طهروا العقائد من البدع والخرافات، إلا أن جمودهم عند حرفية النص قد جعلهم يهملون إعمال العقل في الوعي بمرامي النصوص وملابساتها، ومقاصد الشريعة وحِكَمها وغاياتها.

ففي نهج تيار الإحياء والتجديد نجد «العقل: هو جوهر إنسانية الإنسان. . وأفضل القوى الإنسانية على الحقيقة. .[١١] **وهو نقطة الافتراق التي ميّزت الإنسان عن غيره من الحيوانات. . والتي جعلها الله محور صلاحه وفلاحه»**[١٢]. .

وإذا كانت «الحكمة»: ثمرة من ثمرات العقل، لأنها: هي الإصابة في غير النبوة. . فإنها ـ أي الحكمة ـ في نهج هذا التيار: «هي مقننة القوانين، وموضحة السبل، وواضعة جميع النظامات، ومعينة جميع الحدود، وشارحة حدود الفضائل والرذائل، وبالجملة، فهي: **قوام الكمالات العقلية والخلقية. . فهي أشرف الصناعات! . . .»**[١٣].

● وليس مقام العقل هذا ـ في منهج هذا التيار ـ خاصاً بالعمران

---

(١٠) [الأعمال الكاملة] جـ٣ ص ٢٣١.

(١١) المصدر السابق. جـ ٥ ص ٤٢٨، جـ٣ ص ٢٩٨.

(١٢) [الاعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ص ٢٥٦، ٢٥٧.

(١٣) المصدر السابق. ص ٢٦٠.

الدنيوي.. بل إن هذا هو مقامه وتلك هي مكانته في تحصيل الإيمان الديني أيضاً؟!.. فإذا كان العقل هو أداة النظر والنذير والتفكر... وإذا كان الإيمان هو التصديق القلبي الذي يبلغ مرتبة اليقين، فإنه «**لا يقين مع التخرج من النظر، وإنما يكون اليقين بإطلاق النظر في الأكوان، طولها وعرضها، وحتى يصل إلى الغاية التي يطلبها بدون تقييد... فالله يخاطب، في كتابه، الفكر والعقل والعلم، بدون قيد ولا حد.. والوقوف عند حد فهم العبارة مضرّ بنا، ومنافٍ لما كتبه أسلافنا من جواهر المعقولات..**

والقرآن - وهو وحده المعجز الخارق - قد دعا الناس إلى النظر فيه بعقولهم.. فهو معجزة عرضت على العقل، وعرفته القاضي فيها، وأطلقت له حق النظر في أنحائها، ونشر ما انطوى في أثنائها.. فالإسلام لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي، والفكر الإنساني الذي يجري على نظامه الفطري، فلا يدهشك بخارق للعادة، ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتادة، ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلهية...

والمرء لا يكون مؤمناً إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به.. فمن ربي على التسليم بغير عقل، والعمل، ولو صالحاً، بغير فقه، فهو غير مؤمن، لأنه ليس القصد من الإيمان أن يذلل الإنسان للخير، كما يذلل الحيوان، بل القصد منه: إن يرتقي عقله، وتتزكى نفسه بالعلم بالله والعرفان في دينه، فيعمل الخير لأنه يفقه أنه الخير النافع المرضي لله، ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته في دينه ودنياه!..»[١٤].

وفي الوقت الذي استعار فيه تيار التغريب مفهوم «الوطنية» الضيقة، المناقض لوحدة الأمة الإسلامية، ووحدة ديار الإسلام... وجاهر أعلام هذا التيار - بلسان أحمد لطفي السيد باشا [١٢٨٩ - ١٣٨٣ هـ ١٨٧٢ - ١٩٦٣ م] - بأن «**الجامعة الإسلامية خرافة.. لا أثر لها ولا وجود.. وأن القول بأن أرض الإسلام وطن لكل المسلمين: قاعدة استعمارية تنتفع بها كل أمة مستعمرة**

(١٤) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٣ ص ١٥١، ٢٧٩ - ٢٨١، جـ٤ ص ٤١٤.

تطمع في توسيع أملاكها ونشر نفوذها كل يوم فيما حوالها من البلاد... وأن المصري: هو الذي لا يعرف له وطناً غير مصر[١٥]...»!!..

وهو المفهوم الذي يبرر التجزئة الاستعمارية الغربية لوطن العروبة وعالم الإسلام... فإن تيار الإحياء والتجديد ـ الذي بعث الوطنية ـ كدائرة انتماء ـ على يدي مصطفى كامل باشا ـ قد نبه على خطر هذا المفهوم الغربي والضيّق للوطنية، خطره على وحدة الأمة الإسلامية.. فكتب الإمام محمد عبده يقول: «لقد انحلت الروابط الملية، بل تقطع أكثرها، حتى كادت الأمة تخرج عن كونها أمة حقيقية متكافلة بالمصالح الاجتماعية والتعاون على الأعمال المشتركة التي تحفظ وحدتها. **وطفق بعض هؤلاء «المتمدنين»، الذين قطعوا روابطهم بأيديهم يفكرون في جعل الرابطة الوطنية لأهل كل قطر بدلاً من الرابطة الملية الجامعة لأهل الأقطار الكثيرة، فلم يفلحوا، ولكن أثّر كلامهم أردأ التأثير!..**»[١٦].

● وبينما رأى تيار التغريب ـ بسبب التقليد لمناهج الغرب ـ في إسلامنا: مسيحية، تدع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله.. وفي الخلافة الإسلامية: دولة الكهانة التي استبدت باسم السماء والتفويض الإلهي والسلطة الدينية... نبه تيار الإحياء والتجديد على تميز الإسلام في هذا الميدان.. ميدان علاقة الدين بالدولة.. «**فليس في الإسلام سلطة دينية، سوى سلطة الموعظة الحسنة.. وهي سلطة خولها الله لكل المسلمين، أدناهم وأعلاهم.. وليس للخليفة، أو القاضي، أو المفتي، أو شيخ الإسلام أية سلطة دينية.. بل إن كل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهي سلطة مدنية!.. فليس في الإسلام سلطة دينية بوجه من الوجوه...**»[١٧].

لكن رفض الإسلام هذا للسلطة الدينية، ليس هو موقف المسيحية التي

---

(١٥) أحمد لطفي السيد [قصة حياتي] ص ٦٧، ٧٠، ١٣٤، ١٣٣. طبعة القاهرة ـ دار الهلال ـ سنة ١٩٨٢ م.

(١٦) [الأعمال الكاملة] جـ ٤ ص ٦٨٣.

(١٧) المصدر السابق. جـ ٢ ص ١٧٥، جـ ٣ ص ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٨.

تقف عند حدود الرسالة الروحية، وخلاص النفوس، ومملكة السماء.. وليس العلمانية الغربية التي تفصل الدين وتعزل أحكامه عن الدولة والعمران وعلومهما وشؤونهما.. لأن الإسلام دين ودولة.. بلاغ وتنفيذ.. وبعبارة الإمام محمد عبده، أيضاً: «فإن الإسلام: دين وشرع، فقد وضع حدوداً، ورسم حقوقاً.. ولا تكتمل الحكمة من تشريع الأحكام إلا إذا وجدت قوة لإقامة الحدود، وتنفيذ حكم القاضي بالحق، وصون نظام الجماعة، وتلك القوة لا يجوز أن تكون فوضى في عدد كثير، فلا بد أن تكون في واحد، وهو السلطان أو الخليفة... وليس من أصول الإسلام أن يدع ما لقيصر لقيصر، بل كان من شأنه أن يحاسب قيصر على ما لَهُ، ويأخذ على يده وعمله.. فكان الدين بذلك عند أهله: كما لا للشخص، وأُلْفَة في البيت، ونظاماً للملك...»(١٨).

فنحن هنا، في فكر هذا التيار، أمام مشروع للإحياء والنهضة والتجديد، يدعو أعلامه إلى:

● «سلفية عقلانية - مستنيرة» في فهم الدين، على النحو الذي فهمه منه «الجيل المؤسس» - جيل الصحابة والتابعين - قبل ظهور الخلاف الذي افتعلته المؤثرات الأجنبية..

● وإلى «عقلانية - إسلامية» متميزة عن عقلانية الغرب - اليونانية.. والحديثة -.. عقلانية تقرأ النقل في ضوء العقل، وتضبط العقل بالنقل فيما لا يستقل بإدراكه... وتؤسس الإيمان الديني على النظر العقلي، فتنقذ الإنسان من النصوصية التي لا عقل لأهلها.. ومن الوضعية التي لا تؤمن إلا بثمرات الحواس والمحسوس..

● وإلى تأسيس النهضة على الإسلام.. وعلى ثمرات إبداع الحضارات الأخرى فيما هو مشترك إنساني عام، في ميادين العلوم التي حقائقها وقوانينها موضوعية محايدة، لا تتأثر بتغاير العقائد والحضارات، لأنها ابنة الدليل، تُلمس حيث يوجد الدليل..

---

(١٨) المصدر السابق، جـ٣ ص ٢٨٧، ٢٢٥، ٢٢٦.

● وإلى بعث الروح الوطنية، والروابط القومية، كلبنات ودوائر انتماء في البناء الأعم والأشمل، الذي هو وحدة الأمة والملة في المصالح والحضارة والاعتقاد..

● وإلى شمولية الإسلام - بالوسطية - لمختلف جوانب الحياة الإنسانية والعمران البشري.. الدين والدولة.. الفرد والطبقة والأمة... الوطنية والقومية والجامعة الإسلامية والإنسانية.. والروح والجسد.. الدنيا والآخرة.. إلخ.. إلخ.. على النحو الذي يعصم نهضة الأمة ومشروعها الحضاري من الإنشطارية والثنائية التي مزقت وتمزق العقل الغربي حيال هذه الثنائيات...

تلك هي أبرز ملامح مشروع الإحياء والتجديد، الذي دعا إليه، وجاهد في سبيل تطبيقه، هذا التيار..

وإذا كان «العقد - المنظم» لهذا التيار قد انفرط بعد «الحزب الوطني الحر» وجمعية «العروة الوثقى» - وهما التنظيمان اللذان قادهما جمال الدين الأفغاني.. وانفرط عقدهما بوفاته - فإن أعلام هذا التيار قد أقاموا العديد من التنظيمات.. والمؤسسات.. والمنابر الفكرية.. وأسهموا في الإحياء والتجديد بمختلف السبل والوسائل.. فمن «دار العلوم».. إلى «مدرسة القضاء الشرعي».. إلى تيار مجلة «المنار».. إلى جمعية «أم القرى».. إلى «جماعة العلماء الجزائريين».. إلى العديد من الأحزاب.. والصحف.. والمجلات.. ودور النشر.. والجامعات.. والكتب.. التي مثلت القنوات التي عبرت منها معالم هذا المشروع الحضاري إلى عقول قطاع واسع وأفئدة جمهور عريض من أبناء هذه الأمة، على امتداد وطن العروبة وعالم الإسلام..

صنع هذا التيار ذلك، رغم الحصار والتضييق اللذين فرضا عليه من تياري التقليد والمحاكاة... التقليد للموروث... والمحاكاة للتغريب!...

● فعبدالله النديم: يرفع راية الدفاع عن العربية... ووحدة الأمة.. وتميز تقاليدها.. في مواجهة الذين انطلقوا - بعد الهزيمة العسكرية - يقلدون الغزاة المنتصرين!..

● وقاسم أمين: يدافع - في [الرد على داركور] - عن تميز التمدن الإسلامي عن التمدن الغربي... ويضبط - في [تحرير المرأة] - حريتها بالضوابط الإسلامية - وذلك قبل أن يميل - في [المرأة الجديدة] - إلى قدر من التغريب..

● وسعد زغلول - الذي قاد أعظم ثوراتنا الوطنية في العصر الحديث - يرفض العلمانية الغربية، ويتعجب من «جهل» الشيخ علي عبد الرازق [١٣٠٥ - ١٣٨٦ هـ ١٨٨٧ - ١٩٦٦ م] الذي زعم في كتابه [الإسلام وأصول الحكم] أن الإسلام «رسالة روحية» لا علاقة له بسياسة الدولة والعمران.. فيكتب قائلاً:

«لقد قرأت كتاب الإسلام وأصول الحكم بإمعان، لأعرف مبلغ الحملات عليه من الخطأ والصواب. فعجبت، أولاً، كيف يكتب عالم ديني بهذا الأسلوب في مثل هذا الموضوع؟!.

لقد قرأت كثيراً للمستشرقين ولسواهم، فما وجدت ممن طعن منهم في الإسلام حدة كهذه الحدة في التعبير، على نحو ما كتب الشيخ علي عبد الرازق..

لقد عرفت أنه جاهل بقواعد دينه، بل بالبسيط من نظرياته، وإلا فكيف يدعي أن الإسلام ليس مدنياً؟! ولا هو بنظام يصلح للحكم؟؟!..

فأية مدنية من نواحي الحياة لم ينص عليها الإسلام؟ هل البيع؟ أو الإجارة؟ أو الهبة؟ أو أي نوع آخر من المعاملات؟؟!..

ألم يدرس شيئاً من هذا في الأزهر؟. أو لم يقرأ أن أمما كثيرة حكمت بقواعد الإسلام فقط عهوداً طويلة كانت أنضر العصور؟. وأن أمما لا تزال تحكم بهذه القواعد، وهي آمنة مطمئنة؟ فكيف لا يكون الإسلام مدنياً ودين حكم؟!..

وأعجب من هذا ما ذكره في كتابه عن الزكاة!. فأين كان هذا الشيخ من الدراسة الدينية الأزهرية؟!.... والذي يؤلمني حقاً، أن كثيراً من الشبان

الذين لم تقو مداركهم في العلم القومي، والذين تحملهم ثقافتهم الغربية على الإعجاب بكل جديد، سيتحيزون لمثل هذه الأفكار، خطأ كانت أو صواباً، دون تمحيص ولا درس، ويجدون تشجيعاً على هذا التحيز فيما تكتبه جريدة (السياسة) وأمثالها من الثناء العظيم على الشيخ علي عبد الرازق، ومن تسميتها له بالعالم المدقق، والمصلح الإسلامي، والأستاذ الكبير.. إلخ...

وكم وددت أن يفرق المدافعون عن الشيخ بين حرية الرأي وبين قواعد الإسلام الراسخة، التي تصدى كتابه لهدمها!...»[١٩].

لقد كتب سعد زغلول هذا الكلام في ٢٠ أغسطس سنة ١٩٢٥ م ـ أي قبل وفاته بعامين ـ فأثبت به وفيه أنه قد ظل طوال حياته الفكرية الإبن البار لتيار الإحياء والتجديد، والتلميذ الوفي لفكر جمال الدين الأفغاني والإمام محمد عبده...

● أما الشيخ مصطفى عبد الرازق: فإنه ينهض بعبء التأسيس لذلك التحول الذي أحدثه هذا التيار في حقل الدراسات الفلسفية، وذلك عندما يقدم في كتابه [تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية] نظرية تميز الفلسفة الإسلامية عن فلسفات الأمم الأخرى.. وكيف أن عقلانية الأمة الإسلامية قد تجلت فيما أبدعه المسلمون في «أصول الفقه» و«أصول الدين».. فأرسى بذلك معلماً من معالم التميز للمشروع الحضاري الذي أبدعه تيار الإحياء والتجديد..

● أما رشيد رضا: فهو الذي حفظ الاستمرارية لفكر هذا التيار قرابة أربعة عقود.. تحول فيها [تفسير المنار] إلى معلم جديد لمنهج جديد في تفسير القرآن الكريم.. وغدت فيها مجلة [المنار] منارة التجديد والإحياء على امتداد عالم الإسلام..

---

(١٩) محمد إبراهيم الجزيري [سعد زغلول: ذكريات تاريخية] ص ٩١ ـ ٩٣. طبعة كتاب اليوم ـ القاهرة. وانظر كتابنا [معركة الإسلام وأصول الحكم] ص ١٤٩ ـ ١٥١. طبعة دار الشروق. القاهرة سنة ١٩٨٩ م.

● وكان الخضر حسين: فارس المعارك الفكرية لهذا التيار ضد المتغربين ـ وخاصة في كتابيه: [نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم] و [نقض كتاب في الشعر الجاهلي]. . كما كان فارس التجديد بما كتبه في الشريعة. . واللغة. . وسبل الإصلاح. . وفارس الجهاد الوطني، بالمركز الذي أقامه ـ بالقاهرة ـ لدعوات وحركات التحرير الوطني الإسلامي، وخاصة في بلاد الشمال الإفريقي. .

● أما حسن البنا: فإنه الإمام الذي انتقل بمشروع النهضة هذا من إطار الصفوة المثقفة والنخبة المفكرة إلى أحضان الأمة، وأيدي الجماهير. فلقد جاء في حقبة عمّت فيها بلوى الاحتلال الأجنبي، والتشرذم القطري، والهيمنة التغريبية كل أنحاء ديار الإسلام. . فكان لا بد من أن تحمل الأمة ـ وليس فقط علماؤها ـ مسؤولية التربية والإعداد والاستعداد لمواجهة التخلف الموروث والاستلاب الحضاري بهذا المشروع الحضاري الجديد. . مشروع الإحياء والتجديد. . . فقدم الرجل في هذا الميدان أعظم ما يمكن أن يقدمه مجدد مجاهد استشهد وهو لم يتجاوز الأربعين من عمره إلا بسنوات ثلاث؟!. . .

تلك إشارات إلى طرف من معالم المشروع الحضاري لتيار الإحياء والتجديد. . ونماذج من مواقع نفر من أعلامه. . آثرنا فيها التمثيل. . فلم نعرج على ابن باديس. . والنهضة التي أعاد بها الجزائر إلى العروبة والإسلام. . ولا على الكواكبي. . وإنجازاته في الحرية، والعروبة، ومعالجة أسباب التخلف ووسائل النهوض. . فالحديث عن هذا التيار حديث «مجلدات»، لا «سطور» في صفحات![٢٠]. .

***

---

(٢٠) انظر كتبنا: [مسلمون ثوار] و[الإمام محمد عبده] و[جمال الدين الأفغاني] و[رفاعة الطهطاوي] و[عبد الرحمن الكواكبي] و[علي مبارك] و[قاسم أمين] و[تيارات الفكر الإسلامي] و[الصحوة الإسلامية والتحدي الحضاري]. طبعة دار الشروق. القاهرة.

و. . من التغريب إلى التجديد:

ورغم الإمكانات الهائلة التي سخرتها السلطات الاستعمارية لدعم تيار التغريب ورعاية مسيرته، والتي وضعت أغلب مؤسسات التعليم والتثقيف والإعلام تحت هيمنة نظرياته ورجالاته. . ورغم الحصار الذي ووجه به تيار الإحياء والتجديد من أهل الجمود والتقليد ومن المتغربين جميعاً. . إلا أن الواقع الثقافي ـ بسبب الحاجة الحضارية للمشروع التجديدي ـ وبسبب إفلاس أهل التقليد وعجزهم عن تقديم المشروع الحضاري الذي ينير للأمة طريق النهضة والتحرر. . وبسبب فجاجة الرؤى المتغربة، والرفض التلقائي والطبيعي الذي تقابل به من عقل الأمة ووجدانها، اللذين لم تفسد فطرتهما. . بسبب من هذه العوامل، وغيرها، تخلقت في الواقع الثقافي ظاهرة هامة وذات دلالة وملفتة للأنظار. . ألا وهي: تراجع عدد كبير من الأعلام الذين تغربوا عن التبشير بالنموذج الحضاري الغربي، بعد أن سلكوا هذا السبيل، كاجتهاد خاطىء، وانخراطهم، في مرحلة نضجهم الفكري، بتيار الإحياء والتجديد. .

وهذه الظاهرة ـ التي لا تزال قائمة ومستمرة ـ والتي شملت وتشمل العديد من الذين سلكوا طريق التغريب ـ بشقيه: الليبرالي والشمولي ـ تقوم شاهدة على حقيقة تعلمنا ضرورة التمييز في الذين دعوا ويدعون إلى تبنّي النموذج الحضاري الغربي، بخيره وشره، بحلوه ومره، بخطئه وصوابه، بإنسانياته وخصوصياته وبعلومه الموضوعية والمحايدة. . تعلمنا ضرورة التمييز في هذا الموكب بين الذين تغربوا «عمالة ـ فكرية» للغرب الاستعماري، بسبب كراهيتهم للإسلام، وسعيهم الواعي والمخطط لإزاحة صبغته عن مشروع النهضة وفلسفة الحكم والعمران. . وبين الذين تغربوا بسبب اجتهادهم الخاطىء، الذي دفعهم إلى الظن بأن استعارة النموذج الغربي هو السبيل إلى القوة والنهضة التي تحرر أوطاننا من أغلال الاستعمار والهيمنة الغربية. . لقد رأوا الإسلام في الصورة التي قدمها له تيار الجمود والتقليد، فأيقنوا بعجز هذه الصورة عن أن تكون السبيل للتحرر من الهيمنة الغربية، وعندما وازنوا بين هذه الصورة وبين النموذج الغربي، بهرهم الغرب وأدهشتهم إنجازاته. .

وخدعوا بزعم الغرب وحدة الحضارة، فحسبوا أن التحضر والتقدم لا يقتضي مشروعاً حضارياً متميزاً، وإنما يقتضي اللحاق بالغرب، والاشتراك معه في حضارته، التي صدقوا أنها الحضارة «الإنسانية» و«العالمية». . فكان أن أعلنوا ـ بلسان واحد من أعلامهم ـ: «إن السبيل. . . واضحة بينة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء، وهي واحدة فذة ليس لها تعدد، وهي: إن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً ولنكون لهم شركاء في الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها، ما يُحب منها وما يُكره، وما يُحمد منها وما يُعاب»(٢١)!

لكن عدداً من هؤلاء الأعلام، الذين قادهم الاجتهاد الخاطىء إلى هذا الموقع الفكري، قد أدركوا، بالتجربة، أن «بذور التغريب» غير صالحة للإنبات في «تربتنا الحضارية»، وأن «فطرة الأمة»، التي كوّنها تراثها المتميز وتاريخها الحضاري المغاير لنظيره الغربي، إنما ترفض التغريب رفض الجسد للجسم المقحم عليه والغريب عنه. . فلما نظروا صورة الإسلام، كما عرضها تيار الإحياء والتجديد، وجدوا ضالتهم المنشودة فيه، فكانت عودتهم عن التغريب إلى الإحياء والتجديد. . .

وإذا نحن شئنا استقصاء الأعلام الذين كوّنوا هذه الظاهرة، طال بنا الحديث، وخرج عن ما يقتضيه المقام. . . ولذلك فإننا سنقف هنا عند الإشارة إلى نماذج ثلاثة، علا نجمهم في التيار المتغرب. . ثم راجعوا فكرهم ومواقفهم، فكانت عودتهم ـ الصريحة أو الضمنية ـ المصحوبة بالنقد الشجاع للمسيرة الماضية أو الخالية من هذا النقد الشجاع ـ. . كانت عودتهم عن طريق التغريب إلى تيار الإحياء والتجديد. .

● **فالشيخ علي عبد الرازق** [١٣٠٥ ـ ١٣٨٦ هـ ١٨٨٧ ـ ١٩٦٦ م]: قد خرج على الناس في سنة ١٩٢٥ م بكتابة [الإسلام وأصول الحكم]. . فأثار أكبر معركة فكرية في تاريخنا الحديث. . وغدا كتابه هذا أهم «وثيقة» في يد

---

(٢١) د. طه حسين [مستقبل الثقافة في مصر] جـ ١ ص ٤٥. طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م.

«العلمانيين» الذين يريدون للشرق أن يعزل الإسلام عن الدولة والمجتمع كما عزل الغرب المسيحية عنها. .

ففي هذا الكتاب يقول عالم أزهري، وقاض شرعي ـ لأول مرة في تاريخ العلم الإسلامي والعلماء المسلمين ـ: إن الإسلام دين ورسالة روحية، لا دولة فيه ولا سياسة. . وأن الخلافة الإسلامية كانت ـ كالكهانة الغربية ـ استبداداً وطغياناً باسم الدين. . وأن نبي الإسلام ﷺ، لم ينشيء دولة ولم يقم حكومة، ولم يصنع إلا ما صنعه الرسل السابقون: البلاغ المجرد عن التنفيذ! . . . فعنده: «**أن محمداً ﷺ، ما كان إلا رسولا لدعوة دينية خالصة للدين، لا تشوبها نزعة ملك ولا حكومة، وأنه، ﷺ، لم يقم بتأسيس مملكة، بالمعنى الذي يفهم سياسة من هذه الكلمة ومرادفاتها. ما كان إلا رسولاً كإخوانه الخالين من الرسل، وما كان ملكاً ولا مؤسس دولة، ولا داعياً إلى ملك. . وظواهر القرآن المجيد تؤيد القول بأن النبي ﷺ، لم يكن له شأن في الملك السياسي، وآياته متضافرة على أن عمله السماوي لم يتجاوز حدود البلاغ المجرد من كل معاني السلطان. . إنما كانت ولاية محمد ﷺ، على المؤمنين ولاية الرسالة غير مشوبة بشيء من الحكم.**

هيهات هيهات، لم يكن ثمة حكومة، ولا دولة، ولا شيء من نزعات السياسة ولا أغراض الملوك والأمراء. . . لم يكن هناك ترتيب حكومي، ولم يكن ثمة ولاة ولا قضاة ولا ديوان إلخ. . . كانت زعامة دينية. . . ويا بعد ما بين السياسة والدين. .»[٢٢].

لكن هذا الشيخ، الذي استفز الضمير المسلم كما لم يستفزه عالم ديني عبر التاريخ. . والذي افترى على الإسلام ورسوله فرية لم يفترها مستشرق حاقد أو جاهل. . . سرعان ما عاد ـ بالتدريج، ودون إعلان صريح ـ إلى العدول عن فرية أن الإسلام مجرد رسالة روحية لا دولة فيها ولا سياسة ولا حكم ولا تنفيذ. . فأجاب ـ بعد أن حاكمته وأدانته «هيئة كبار العلماء» ـ وبعد أن فند

---

(٢٢) [الإسلام وأصول الحكم] ص ٤٨ ـ ٨٠. طبعة القاهرة سنة ١٩٢٥ م.

زعمه ونقض دعواه عدد كبير من أعلام العلماء ـ أجاب على سؤال الجماعة من العلماء، فقال: «**إن الإسلام دين تشريعي، وإنه يجب على المسلمين إقامة شرائعه وحدوده، وإن الله خاطبهم جميعاً بذلك**»(٢٣). . . وذلك بعد أن كان قد زعم في كتابه أن الواجب هو إقامة أية حكومة: بلشفية أو رأسمالية، ديمقراطية أو استبدادية!..

وفي مرحلة تالية من مسيرته الفكرية ـ سنة ١٩٥١ م ـ دار حوار بينه وبين الدكتور أحمد أمين [١٢٩٥ ـ ١٣٧٣ هـ ١٨٧٨ ـ ١٩٥٤ م] حول دواء ما وصل إليه المسلمون من جمود، فقال في هذا الحوار: «إن دواء ذلك أن نرجع إلى ما نشرته قديماً من أن رسالة الإسلام روحانية فقط، ولنا الحق فيما عدا ذلك من مسائل ومشاكل إلخ . . .». فلما نشر أحمد أمين ذلك ـ في مجلة [رسالة الإسلام](٢٤) ـ علق علي عبد الرازق على هذه العبارة ـ عبارة: «إن رسالة الإسلام روحانية فقط» ـ فقال: «. . . **ما أرى إلا أن هناك خطأ في التعبير جرى به لساني في المجلس الذي كنا نتجادل فيه ونستعرض حال المسلمين.**

وما أدري كيف تسربت كلمة روحانية الإسلام إلى لساني يومئذ، ولم أُرد معناها، ولم يكن يخطر لي ببال!...

بل لعله الشيطان ألقى في حديثي بتلك الكلمة ليعيدها جذعة تلك الملحمة التي كانت حول كتاب «الإسلام وأصول الحكم». . وللشيطان أحياناً كلمات يلقيها على ألسنة بعض الناس. .»(٢٥)؟!

هكذا تراجع علي عبد الرازق عن «البدعة» التي لم يسبقه إليها عالم من علماء الإسلام. . بدعة «علمنة الإسلام». . وبقي أن يعي ذلك تيار التغريب، الذي يتمسك حتى الآن برأي تراجع عنه صاحبه، ويلعب بورقة سحبها صاحبها منذ عشرات السنين!...

---

(٢٣) صحيفة [السياسة] ـ اليومية ـ العدد ٨٨١ بتاريخ ١ ـ ٩ ـ ١٩٢٥ م.
(٢٤) عدد أبريل سنة ١٩٥١ م.
(٢٥) انظر مقاله في مجلة [رسالة الإسلام] ـ عدد مايو سنة ١٩٥١ م.

● **أما الدكتور طه حسين: [١٣٠٦ - ١٣٩٣ هـ ١٨٨٩ - ١٩٧٣ م]:** فلعل أشد آرائه المتغربة استفزازاً للعقل المسلم كانت تلك التي حوتها صفحات من كتابيه [في الشعر الجاهلي] - الذي صدر سنة ١٩٢٦ م - و[مستقبل الثقافة في مصر] - الذي صدر سنة ١٩٣٨ م -..

فهو في الكتاب الأول - [في الشعر الجاهلي] - يعرض لقضية من قضايا النقد الأدبي - قضية الانتحال في الشعر الجاهلي - وهي قضية تكلم فيها قدماء ومحدثون، عرب ومستعربون.. ولا علاقة للخلاف حولها بمقدسات الدين وعقائد الإسلام..

لكنه - في هذا الكتاب - بعد أن تحدث عن افتقار الشعر الجاهلي إلى الصدق - صدق الثبوت - الذي يجعله المصدر الثقة في وصف وتصوير الحياة الجاهلية، تحدث عن القرآن الكريم حديثاً طيباً قال فيه: «إن القرآن هو أصدق مرآة للعصر الجاهلي. **ونص القرآن ثابت لا سبيل إلى الشك فيه**»[٢٦].

لكنه قد عاد فجمح به الفكر واشتط منه القلم عندما سطر نحواً من ثمانية وعشرين سطراً، رفض فيها تصديق إخبار القرآن عما أخبر به حول:

أ - علاقة الإسلام بملة إبراهيم، عليه السلام.. والحنيفية والحنفاء...

ب - وقصة بناء الكعبة ورفع قواعدها بواسطة إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام..

جـ - وأخبار الرحلة الحجازية لإبراهيم، عليه السلام...[٢٧]

وبعد الضجة الكبرى التي أثارتها هذه السطور، التي تشكك في القرآن، بعد أن قال كاتبها - وفي ذات الكتاب -: «إن نصه ثابت لا سبيل إلى الشك فيه».. وبعد النقد والنقض والتفنيد الذي وجه إلى هذا الرأي تحديداً... حذف الدكتور طه هذه السطور من كتابه، وأعاد النظر فيه، بالإضافة والتوثيق

---

(٢٦) [في الشعر الجاهلي] ص ١٦. طبعة القاهرة سنة ١٩٢٦ م.
(٢٧) المرجع السابق. ص ٨٠، ٨١.

والضبط والتصحيح، وأعاد نشره تحت عنوان جديد - [في الأدب الجاهلي] -..

فإذا علمنا أن الكتاب، في صورته الأولى، لم يصادر.. وأن النيابة العامة قد حفظت التحقيق مع المؤلف، دون توجيه أي اتهام إليه، كنا مطمئنين إلى ما نراه من أن حذف المؤلف لهذه السطور الثمانية والعشرين إنما كان عدولاً منه عن ذلك الرأي البالغ في الشذوذ حد التناقض مع ما قطع به هو نفسه، في ذات الكتاب، من «أن القرآن هو أصدق مرآة للعصر الجاهلي، وأن نصه ثابت لا سبيل إلى الشك فيه»...

أما كتابه الثاني - [مستقبل الثقافة في مصر] - فلعل بعض صفحاته أن تكون أكثر أصوات التغريب علواً وصراحة - بعد كتابات سلامة موسى -!..

ففي هذا الكتاب يعلن طه حسين ما سبقه إليه سلامة موسى، عندما يقول: **«إن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساساً للوحدة السياسية ولا قواماً لتكوين الدول...»**[٢٨]

ويتبنى ما سبقه إليه علي عبد الرازق، فيقول: **«إن السياسة شيء والدين شيء آخر..»**[٢٩]

ويدعو إلى الإلحاق والالتحاق الحضاري بالغرب، بدعوى وحدة العقل المصري والشرقي مع العقل الغربي، فكلاهما قد صيغ صياغة يونانية؟!.. فعنده أن العقل الإسلامي هو - كالعقل الأوروبي - مرده إلى عناصر ثلاثة:

- «حضارة اليونان وما فيها من أدب وفلسفة وفن».

- و«حضارة الرومان وما فيها من سياسة وفقه».

- والمسيحية وما فيها من دعوة إلى الخير وحث على الإحسان[٣٠]..

---

(٢٨) [مستقبل الثقافة في مصر] جـ ١ ص ١٦. طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م.
(٢٩) المرجع السابق. ص ١٧.
(٣٠) المرجع السابق. ص ٢٩.

وكما لم يغير الإنجيل من الطابع اليوناني للعقل الأوروبي. . . فكذلك القرآن، لم يغير من الطابع اليوناني للعقل الشرقي، لأن القرآن «إنما جاء متمماً ومصدقاً لما في الأنجيل»(٣١)!!. .

ثم يخلص إلى أن يقول: وهكذا «كانت مصر دائماً جزءاً من أوروبا، في كل ما يتصل بالحياة العقلية والثقافية، على اختلاف فروعها وألوانها. . .»(٣٢).

وكما حدث مع كتابه [في الشعر الجاهلي]. . . فلقد ووجه هذا الكتاب بحملة كبيرة من النقد والنقض والتفنيد. . . وأبرز معارضوه دور الدين واللغة في الوحدة السياسية للدول والقوميات. وتحدثوا عن تميز الإسلام في العلاقة بين السياسة والدين. وفندوا مزاعمه حول يونانية العقل الشرقي. . . ودحضوا افتراءه حول أن القرآن لم يصنع بالعقل الشرقي أكثر مما صنع الإنجيل بالعقل الأوروبي. . . إلخ. . . إلخ. .

حدث جميع ذلك في الساحة الفكرية، دونما مصادرة لرأي أو منع لكتاب. . .

وإذا كان طه حسين لم يحذف هذه الصفحات من كتابه [مستقبل الثقافة في مصر] ـ كما حذف السطور الثمانية والعشرين من كتابه [في الشعر الجاهلي] ـ. . فلأنه ـ في تراجعه عن هذه الآراء ـ قد صنع أكثر مما صنع في كتابه الأول. . . فلقد أحجم عن إعادة طبع هذا الكتاب ـ [مستقبل الثقافة في مصر] ـ طوال حياته، ودون جميع كتبه الأخرى؟!. . وعندما سئل ـ سنة ١٩٧١ م ـ عن هذه الآراء التي أثارت الجدل، والتي تضمنها هذا الكتاب، أعلن ـ رغم كبريائه المتضخم؟! ـ: إنها آراء تحتاج إلى إعادة نظر وتعديل وإصلاح. . فقال عن هذا الكتاب: «ده كُتِب سنة ١٩٣٦ م. . قُدُم قوى، عاوز يتجدد. . ويجب أن أعود إليه، وأصلح فيه بعض حاجات، وأضيف. . .»(٣٣).

(٣١) المرجع السابق. ص ٢١، ٢٢.
(٣٢) المرجع السابق. ص ٢٦.
(٣٣) انظر حديثه هذا في صحيفة [الأهرام] عدد أول مارس سنة ١٩٧١ م.

وهكذا، عاد طه حسين عن اجتهاداته الخاطئة، التي وضعته في معسكر المتغربين.. لأنه كان صاحب اجتهاد، اخطأ فيه فتغرب... فلما أصاب عاد إلى مشارف تيار الإحياء والتجديد.. وهو مأجور في كل الأحوال.. فلم يكن في يوم من الأيام «عميلاً فكرياً» كما كان الحال مع الذين كرهوا الإسلام فسعوا إلى التغريب محاولين زراعته في تربتنا الحضارية على أمل اقتلاع الإسلام!...

● **أما الدكتور محمد حسين هيكل [١٣٠٥ - ١٣٧٥ هـ ١٨٨٨ - ١٩٥٦ م]**: فلقد كان النموذج الأكثر صدقاً وموضوعية وشجاعة في هذه الظاهرة.. ظاهرة العدول عن التغريب، كاجتهاد خاطىء، إلى تيار الإحياء والتجديد، الذي يقدم للأمة فكرها «الطبيعي» والقادر على إنارة طريقها إلى النهضة والانعتاق من هيمنة الحضارة الغربية.

فلقد تحدث الرجل حديث صدق، وأعلن في شجاعة عن الملابسات التي اكتنفت آراءه السابقة المتغربة، وعن الأسباب الموضوعية للتحولات الفكرية التي تبنّى بها الخيار الحضاري الإسلامي.. صنع ذلك، وهو يحاور أصدقاء الأمس، الذين أصبحوا ناقدين له وغامزين إياه بعد ما حدث لفكره من تحولات..

وإذا نحن شئنا أمثلة من هذه التجربة في التحول الفكري من «التغريب» إلى «التجديد»، فإننا نقدم شهادة الرجل، وبنفس عباراته، على التحولات التي حدثت لفكره في المقولات والقضايا الأساسية التي كان يطرحها ويبشر بها المتغربون، والتي لا زالت مطروحة في ساحة التغريب حتى الآن؟!..

أ ـ فالرجل قد بدأ حياته متغرباً.. وكان موقعه من أحمد لطفي السيد باشا هو موقع التلميذ من الأستاذ.. ولقد مارس النشاط الفكري المبكر كاتباً في «الجريدة» ـ التي أصدرها ورأس تحريرها لطفي السيد ـ وهي المنبر الذي كان يبشر بالوطنية والقومية، بمعناهما الغربي، فيرى ضرورة استقلال مصر عن محيطها العربي والإسلامي استقلالاً سياسياً وحضارياً، على النحو الذي يحررها من الاستعمار الإنجليزي، ويلحقها في الوقت ذاته بالحضارة الغربية...

بدأ هيكل في هذه المدرسة الفكرية.. فلما حدث له التحول الفكري ـ وهو في العقد الخامس من عمره ـ سن النضج الفكري ـ كتب ناقداً وناقضاً للفكرة القومية، بمعناها ومضمونها الغربي، ومعلناً انتماءه إلى مفهوم الأمة الواحدة، المؤسس على عقيدة التوحيد، التي هي جوهر دين الإسلام.. كتب يقول: «**إن الفكرة الإسلامية، المبنية على التوحيد، تخالف ما يدعو إليه عالمنا الحاضر من تقديس القوميات، وتصوير الأمم وحدات متنافسة، يحكم السيف وتحكم أسباب الدمار بينها فيما تتنافس عليه.**

ولقد تأثرنا، معشر أمم الشرق، بهذه الفكرة القومية، واندفعنا ننفخ فيها روح القوة، نحسب أنا نستطيع أن نقف بها في وجه الغرب الذي طغى علينا وأذلنا. وخيل إلينا، في سذاجتنا، أنا قادرون بها وحدها على أن نعيد مجد آبائنا، وأن نسترد ما غصب الغرب من حريتنا وما أهدر بذلك من كرامتنا الإنسانية.

ولقد أنسانا بريق حضارة الغرب ما تنطوي هذه الفكرة القومية عليه من جراثيم فتاكة بالحضارة التي تقوم على أساسها وحدها، وزادنا ما خيم علينا من سُجُف الجهل إمعاناً في هذا النسيان.

على أن التوحيد، الذي أضاء بنوره أرواح آبائنا، قد أورثنا من فضل الله سلامة في الفطرة هدتنا إلى تصور الخطر فيما يدعو الغرب إليه..

ولذلك لم يكن لنا مفر من العودة إلى تاريخنا نلتمس فيه مقومات الحياة المعنوية لنخرج من جمودنا المذل، ولنتقي الخطر الذي دفعت الفكرة القومية الغرب إليه، فأدامت فيه الخصومة بسبب الحياة المادية التي جعلها الغرب إلهه!..»[٣٤].

فهو، هنا، يحدد أن تبنيه ـ هو وأمثاله ـ للنموذج الغربي في القومية، إنما كان اجتهاداً خاطئاً، ظنوا أنه السبيل إلى «أن نعيد مجد آبائنا، وأن نسترد ما غصب

---

(٣٤) [في منزل الوحي] ص ٢٢ ـ ٢٦. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧ م.

الغرب من حريتنا وما أهدر من كرامتنا الإنسانية». ويعلن أن الذي ساعد على الخطأ في هذا الاجتهاد، هو «بريق حضارة الغرب» و«السذاجة» التي عليها المتغربون؟!.. ويقول إن التحول الذي حدث له، من التغريب إلى التجديد، إنما أعان عليه تلك «الفطرة» التي رسخها التوحيد الإسلامي في أرواح أبناء الإسلام.. وأن التماس مشروع إنهاض الأمة من حضارتها وعقيدتها، إنما هو السبيل إلى الخروج من «الجمود المذل» - الذي عليه تيار التقليد والجمود - واتقاء «الخطر الغربي» - الذي يكرسه المتغربون -!..

ب - وبالنسبة للعلمانية، التي تفصل الدين عن الدولة، والتي بشّر بها المتغربون - لأنها قسمة أصيلة في مشروع النهضة الغربية -.. كان الدكتور هيكل في سنة ١٩٢٥ م رئيس تحرير صحيفة [السياسة] - لسان حال حزب «الأحرار الدستوريون» -.. ومن موقعه هذا قاد حملة الدفاع عن كتاب الشيخ علي عبد الرازق - [الإسلام وأصول الحكم] - ذلك الذي ادعى فيه علمانية الإسلام، وخلوه من أية علاقة بالدولة والحكم والسياسة والتنفيذ - فهو عنده «رسالة روحية» و«يا بعد ما بين السياسة والدين».. ونبي الإسلام - كما زعم صاحب هذا الكتاب - لم يُقِم دولة، ولم يرأس حكومة، ولم يؤسس ملكاً، وإنما كان، كالخالين من الرسل، مجرد مبلِّغ لا علاقة له بالتنفيذ!...

كان الدكتور هيكل، في سنة ١٩٢٥ م، قائد حملة الدفاع عن هذه العلمانية.. فلما حدث له التحول الفكري.. وقدم للناس - في سنة ١٩٣٥ م - كتابه [حياة محمد] - نقض فيه مرتكزات العلمانية من الأساس، وأوضح تميز الإسلام عن المسيحية، واختلاف الإنجاز المحمدي في السياسة والدولة عن عيسى، عليه السلام، وغيره من الرسل الخالين، وضرورة الرؤية المتميزة للمسيرة المتميزة لحضارة الإسلام في هذا الموضوع.. موضوع العلاقة بين الدين والدولة.. فكتب يقول: **«لقد أقام محمد دين الحق، ووضع أساس حضارة هي وحدها الكفيلة بسعادة العالم.**

والدين والحضارة اللذان بَلَّغهما محمد للناس، بوحي من ربه، يتزاوجان، حتى لا انفصال بينهما.. وقد خلا تاريخ الإسلام من النزاع بين السلطة الدينية

والسلطة الزمنية: أي بين الكنيسة والدولة، فأنجاه ذلك مما ترك هذا النزاع في تفكير الغرب وفي اتجاه تاريخه. . .»(٣٥).

فهو هنا يجعل الحضارة الإسلامية والدين الإسلامي بلاغاً إلهياً إلى الرسول ﷺ، ويؤكد أن النبي، كما أقام الدين، فلقد وضع أساس الحضارة، وانهما، لذلك، «لا انفصال بينهما». . كما ينبه على تميز التاريخ الإسلامي عن تاريخ الغرب في العلاقة بين الدين والدولة. . الأمر الذي يجعل من السفاهة الفكرية استعارة حل غربي - هو العلمانية - لمشكلة لم يعرفها الشرق - وهي الكهانة واستبداد الكنيسة بالدولة والسلطة الزمنية -. . .

جـ - ثم يقدم لنا موقفا نقدياً متكاملاً للمرحلة التي تغرّب فكره فيها. . . ملابسات هذا التغرب. . وأسباب التحول عنه إلى أحضان حضارة الإسلام. . فيقول: «لقد خُيِّل إليّ زمناً، كما لا يزال يُخَيَّل إلى أصحابي، أن نقل حياة الغرب العقلية والروحية هو سبيلنا إلى النهوض والتقدم. . . فحاولت أن أنقل لأبناء لغتي ثقافة الغرب المعنوية والروحية، لتتخذها جميعاً هدى ونبراساً.

ولكنني أدركت، بعد لأي، أنني أضع البذر في غير منبته، فإذا الأرض تهضمه ثم لا تتمخض عنه، ولا تبعث الحياة. .

وما أزال أشارك أصحابي في أنّا ما نزال في حاجة إلى أن ننقل من حياة الغرب العقلية كل ما نستطيع نقله. لكنني أصبحت أخالفهم في أمر الحياة الروحية، وأرى أن ما في الغرب منها غير صالح لأن ننقله. فتاريخنا الروحي غير تاريخ الغرب، وثقافتنا الروحية غير ثقافته. خضع الغرب للتفكير الكنسي على ما أقرته «البابوية» المسيحية منذ عهدها الأول، وبقي الشرق بريئاً من الخضوع لهذا التفكير. . .

كيف نستطيع أن ننقل ثقافة الغرب الروحية لننهض بهذا الشرق، وبيننا وبين الغرب في التاريخ وفي الثقافة الروحية هذا التفاوت العظيم؟!

---

(٣٥) [حياة محمد] ص ٥١٦، ٥١٩. طبعة القاهرة سنة ١٩٨١ م.

لا مفر، إذاً، من أن نلتمس في تاريخنا وفي ثقافتنا وفي أعماق قلوبنا وفي أطواء ماضينا هذه الحياة الروحية، نحيي بها ما فتر في أذهاننا ونمد من قرائحنا وجمد من قلوبنا..

هذا كلام واضح بيّن. ومن عجب أن يخفى على أصحابي، فلا يرونه، وأن يكون خفاؤه سبب تثريبهم عليّ!.

ولكن، لا عجب، فقد خفي هذا الكلام عني سنوات، كما لا يزال خفياً عن كثيرين منهم!..»[٣٦].

هنا، يقدم الدكتور هيكل وثيقة في الموضوعية الفكرية، وفي الشجاعة الفكرية جديرة بأن تكون موضوع دراسة ونموذجاً للاقتداء.. وهي وثيقة ما نظن أنها في حاجة إلى تعليق!..

د ـ ولا ينسى الرجل أن يحدثنا عن تجربة أخرى له، توسطت بين مرحلتي التغريب والتجديد..

فلقد ظن ـ بعد أن تيقن من استحالة اتخاذ النموذج الغربي مشروعاً لنهضتنا ـ ظن أن «النموذج الفرعوني» القديم ـ وهو تراث مصري ـ قد يكون صالحاً للبعث، كمشروع للنهضة المصرية المنشودة... فبشر ـ مع آخرين ـ بالفرعونية.. ثم اكتشف أنها، هي الأخرى وهم من الأوهام، فلقد غدت تاريخاً يدرسه المتخصصون، ومتاحف تعين على الدراسات الحضارية والتاريخية للقدماء.. على حين قد انطبع حاضر الأمة وعقلها ووجدانها بطابع جديد، وصيغا صياغة جديدة، قوامها مقومات الإسلام... فكتب الرجل عن هذا المنعرج من منعرجات رحلته الفكرية يقول:

«... ولقد انقلبتُ ألتمس في تاريخنا البعيد، في عهد الفراعين، موئلاً لوحي هذا العصر، ينشأ فيه نشأة جديدة، فإذا الزمن وإذا الركود العقلي قد قطعا ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد يصلح بذرا لنهضة جديدة.

---

(٣٦) [في منزل الوحي] ص ٢٢ ـ ٢٦.

وروَّأْتُ فرأيت أن تاريخنا الإسلامي هو وحده البذر الذي ينبت ويثمر، ففيه حياة تحرك النفوس وتجعلها تهتز وتربو، ولأبناء هذا الجيل في الشرق نفوس قوية خصبة تنمو فيها الفكرة الصالحة لتؤتي ثمرها بعد حين...»[٣٧]. . ـ وهو هنا يتبنى موقف محمد عبده ـ الذي أشرنا إليه ـ حول: إن الإسلام هو سبيل الإصلاح..

هـ ـ ولذلك.. خلص الدكتور هيكل، وهو يتحدث عن هذا التحول الفكري، الذي انتقل به من مواقع «تيار التغريب» ـ عبر دعاة «النزعة الفرعونية» ـ إلى مواقع تيار «الإحياء والتجديد».. خلص إلى تقديم مفهوم عميق وموضوعي ومتميز لعلاقة «الأصالة» بـ«المعاصرة»..

فإذا كانت «الإصالة» هي المنابع الحضارية والقسمات الثوابت فيها، والمميزة لها.. فإن «المعاصرة» لا تعني إضافة الحضارة الغربية المعاصرة إلى أصالتنا، ليصبح «تاريخنا» الحضاري إسلامياً، و«واقعنا وحاضرنا» الحضاري غربياً.. وإنما «المعاصرة» ـ ومعناها: التعامل مع العصر ـ لا بد لها من أن تتميز ذات التميز الذي تميزت به «الأصالة»، حتى تكون طبيعية، ومقبولة، ومتسقة مع الأصالة، وحتى تحقق للأمة تميزها وتواصلها الحضاري، فلا تكون أداة للمسخ والنسخ والتشويه، وسبيلاً للانقطاع الحضاري، والإلحاق والتبعية لحضارة أخرى؟!..

لقد خلص الدكتور هيكل إلى هذه المعاني لمصطلحات «الأصالة» و«المعاصرة» ـ **وهي التي لا تزال غائبة عن كثيرين؟!.. فكتب يقول:**

«إن أمة لا يتصل حاضرها بماضيها خليقة أن تضل السبيل.

وإن الأمة التي لا ماض لها لا مستقبل لها.

ومن ثم كانت الهوة التي ازدادت عمقاً بين سواد الأمم في الشرق والدعوة إلى إغفال ماضينا والتوجه وجهة الغرب بكل وجودنا، وكان النفور من جانب

---

(٣٧) المصدر السابق. ص ٢٢ ـ ٢٦.

السـواد عن الأخـذ بحيـاة الغـرب المعنـويـة، مـع حـرصـه عـلى نقـل علومـه وصناعاته.. والحياة المعنوية هي قوام الوجود الإنساني للأفراد والشعوب..

لـذلك لم ألبث حـين تبينت هذا الأمـر، أن دعـوت إلى إحيـاء حضـارتنـا الشرقية..

فأين هذا من تملق الجمهور أو متابعته التماسـاً لرضـاه.. كما يـزعم الذين يغمزون؟!...»[٣٨].

* * *

إنه شاهد صدق.. بل أعظم شواهد الصدق على هذه الظاهرة التي تخلقت في حياتنا الفكرية والثقافية.. ظـاهرة تحـول أولئك الـذين كان تغـرّبهم اجتهاداً خـاطئاً ـ عنـدما اكتشفـوا خطأهم ـ وعنـدما نضجـوا فكريـاً، فـأدركـوا حقيقـة الإسلام، وحضارته، وحقيقة العـروة الوثقى بـين عقيدة الأمـة وحضارتهـا وبين أي مشروع للنهضة، يرجى منـه أن يكون سبيـلاً للتقدم والنهـوض والإحياء.. عنـد ذلك، حـدث لهم هذا التحـول العظيم من مـوقع «التغـريب» إلى مـوقـع «الإحياء والتجديد»، تاركين في معسكر التغـريب أولئك الـذين اختاروه واعـين وعـامـدين ومتـآمـرين.. لأنـه، بـالنسبـة لهم، هـو البديل لـلإسـلام الـذي يكرهون؟!..

* * *

تلك هي الملامح الرئيسية للتيارات الفكرية التي تنازعت ثقافتنا العـربية.. والتي كـان تنازعها ـ ولا يزال ـ مصـدر استنزاف طـاقات الفـرقـاء المختلفـين في الصراع الثقـافي والفكري الـداخلي، فلم يستـطع طرف الهيمنـة وتحقيق السيادة للمشروع الذي يريد.. فكانت النتيجة أن أصبحت قوى الجميع واقفة ومتوقفة عنـد «السلب» أكـثر من «الإيجـاب»، وكـأنمـا النـاتـج هـو «الصـفر» من هـذا الصراع؟!..

(٣٨) المصدر السابق، ص ٢٢ ـ ٢٦.

إن تيار التقليد ـ الذي يعتبر عقل الأمة «مملوكياً ـ عثمانياً» ـ وهو يهيمن على وجدان قطاع عريض من العامة ـ قد انسحب من «الحاضر» إلى «الماضي»، يستفتي «الموتى» في ما هو جزئي وثانوي من شؤون حياة «الأحياء».. ويكتفي، في الشؤون العامة. بإطلاق البخور للسلاطين!..

وإن تيار التغريب ـ الذي يعتبر عقل الأمة «يونانياً ـ غربياً» ـ وخاصة بعد تعاظم تيار الصحوة الإسلامية ـ يسفر عن وجهه الحقيقي، مقترباً من خنادق الأعداء، ساعياً إلى صب حاضر الأمة ومستقبلها في مستنقع التبعية للحضارة الغربية!..

أما تيار الإحياء والتجديد ـ القائل بأن عقل الأمة: عربي إسلامي ـ والذي يحاصره أهل التقليد وأهل التغريب جميعاً ـ فإنه يحاول صياغة مشروعه الحضاري العربي الإسلامي.. لكن تفرق رموزه، يجعله عاجزاً حتى الآن عن إحداث التحولات التي تغير من السكون والركود السائدين في هذا الميدان..

***

ولعل في:

١ ـ انتظام أعلام الإحياء والتجديد في مؤسسات فكرية، لها منابرها الثقافية، ومراكزها البحثية...

٢ ـ وفتح قنوات التأثير والتأثر بين «أهل الفكر» ـ في تيار الإحياء والتجديد ـ وبين «أهل الحركة» ـ في تيار الصحوة الإسلامية ـ..

٣ ـ وإقامة حوار فكري منظم، ومرحلي، ومخطط له، بين هذه التيارات الفكرية الثلاثة ـ أهل التقليد.. وأهل التجديد.. وأهل التغريب ـ.. لعل في إقامة هذا الحوار ما يؤدي إلى إقناع أهل التقليد ـ أو الكثيرين منهم ـ باستحالة صب واقعنا ـ الحاضر والمستقبل ـ في قوالب الماضي.. وإقناع أهل التغريب ـ وخاصة أصحاب الاجتهاد الخاطىء منهم ـ باستحالة صب حاضرنا ومستقبلنا في قوالب الحضارة الغربية..

وبضرورة اكتشاف «مساحة الوحدة على الأصول»، بين مختلف التيارات، و«مساحة التعددية في الفروع»، بين هذه التيارات..

وبضرورة التمييز بين «الثوابت» و«المتغيرات» في تراثنا... والتمييز في مواريث الحضارات الأخرى بين «المشترك الإنساني العام» وبين «الخصوصيات الحضارية»...

فبذلك ينمو التيار الوسطي ـ تيار الإحياء والتجديد ـ.. وتجتمع أغلب طاقات وإمكانات العقل العربي والإسلامي على معالم المشروع الحضاري الذي يفجر الإبداع في حقل الفكر والثقافة، فتتجاوز الأمة أزمة ثقافتها العربية الإسلامية، التي دخلت بها في المأزق الذي تعيش فيه..

ذلك هو التصور لأسباب الأزمة.. ولمعالمها..

وهذا هو الأمل في الخروج منها..

وعلى الله قصد السبيل.. منه نستمد العون والتوفيق،،